أنفسهم لا يأتون البأس إلّا قليلاً منه وقليلاً منهم، وهؤلاء القلة في القلة لا يثبتون في البأس بل يثبطون ويثبِّطون.

وقد يعني ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ فيما يعني قول فلان لرجل بجنبه من إخوانه أما ترى هذا الشيطان عمراً ما يفلت من يديه أحد فهلموا ندفع إليه محمداً ليقتله ونلحق بقومنا فأنزل الله آية المعوقين[1] وهنالك وقعت الطامة الكبرى إذ قتل

(١) نور الثقلين ٤: ٢٥٠ فيما أورده القمي من القصة.. وأقبلت قريش فلما نظروا إلى الخندق قالوا هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها قبل ذلك فقيل لهم: هذا من تدبير الفارسي الذي معه فوافى عمرو بن عبد ود وهبيرة بن وهب وضرار بن الخطاب إلى الخندق وكان رسول الله ﷺ قد صف أصحابه بين يديه فصاحوا بخيلهم حتى ظفروا الخندق إلى جانب رسول الله ﷺ فصاروا أصحاب رسول الله ﷺ كلهم خلف رسول الله ﷺ وقدموا رسول الله ﷺ بين أيديهم وقال رجل من المهاجرين وهو فلان لرجل بجنبه... وركز عمرو بن عبد ود رمحه في الأرض وأقبل يجول جولة ويرتجز ويقول:

ولقد بححت من النداء لجمعكم هل من مبارز ووقفت إذ جبن السجاع مواقف القرن المناجز
إني كذلك لم أزل متسرعاً نحو الهراهز إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

فقال رسول الله ﷺ من لهذا الكلب؟ فلم يجبه أحد فوثب إليه أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أنا له يا رسول الله ﷺ فقال يا علي! هذا عمرو بن عبد ود فارس يليل فقال: أنا علي بن أبي طالب فقال رسول الله ﷺ ادن مني فدنا منه فعممه بيده ودفع إليه سيفه ذا الفقار وقال له: اذهب وقاتل بهذا وقال: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته فمرّ أمير المؤمنين عليه السلام يهرول في مشيه وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز ذو نية وبصيرة ولصدق منجى كل فائز
اني لأرجو أن أقيم عليك فاتحة الجنائز من ضربة نجلاء يبقى صيتها بعد الهزاهز

فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وختنه فقال: والله إن أباك كان لي صديقاً ونديماً وإني أكره قتلك، ما أمن ابن عمك حين بعثك إلي أن أختطفك برمحي هذا فأتركك شائلاً بين السماء والأرض لا حي ولا ميت؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: قد علم ابن عمي أنك إن قتلتني دخلت الجنة وأنت في النار وإن قتلتك فأنت في النار وأنا في الجنة! فقال عمرو: كلتاهما لك يا علي تلك إذاً قسمة ضيزى فقال علي عليه السلام: دع هذا يا عمرو إني سمعت منك وأنت متعلق بأستار الكعبة تقول: لا يعرضن عليّ أحد في الحرب ثلاث خصال إلا أجبته إلا واحدة منها وأنا أعرض إليك ثلاث خصال فأجبني إلا واحدة قال: هات يا علي! قال: أحدها تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول =

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فارس يليل عمرو بن عبد ود فتم انهزام الأحزاب ونزل جبريل بقوله: «لا فتى إلا علي لا سيف إلا ذو الفقار»! وعندئذ هاجت الرياح وانهزم الكفار وولوا الأدبار فهم بين قتيل وجريح وأسير وفارٍّ! كما وقد يعني ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ موارد أخرى[1].

= الله صلى الله عليه وآله قال: نحّ عني هذا فاسأل الثانية، فقال: إن ترجع وترد هذا الجيش عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإن يك صادقاً فأنتم أعلى به عيناً وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره، قال: إذاً تتحدث نساء قريش وتنشد الشعراء في أشعارها أني جبنت ورجعت على عقبي من الحرب وخذلت قوماً رأسوني عليهم! فقال له أمير المؤمنين عليه السلام فالثالثة أن تنزل إلى قتالي فإنك فارس وأنا راجل حتى أنابذك (أكاشفك وأقاتل) فوثب عن فرسه وعرقبه: (قطع عرقوبه: عصب غليظ فوق العقب) وقال: هذه خصلة ما ظننت أن أحداً من العرب يسومني عليها: (يكلفني إياها) ثم بدأ فضرب أمير المؤمنين عليه السلام بالسيف على رأسه فاتقاه أمير المؤمنين بالدرقة الترس فقطعها وثبت السيف على رأسه فقال له علي عليه السلام: يا عمر وما كفاك أني بارزتك وأنت فارس العرب حتى استعنت علّي بظهير؟ فالتفت عمرو إلى خلفه فضربه أمير المؤمنين عليه السلام مسرعاً إلى ساقيه فقطعهما جميعاً وارتفعت بينهما عجاجة فقال المنافقون قتل علي بن أبي طالب ثم انكشف العجاجة ونظروا فإذا أمير المؤمنين عليه السلام على صدره قد أخذ بلحيته يريد أن يذبحه ثم أخذ رأسه وأقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله والدماء تسيل على رأسه من ضربة عمر وسيفه يقطر منه الدم وهو يقول: أنا ابن عبد المطلب الموت خير للفتى من الهرب فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي عليه السلام ماكرته؟ قال: نعم يا رسول الله صلى الله عليه وآله الحرب خديعة وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله الزبير إلى هبيرة بن وهب فضربه على رأسه ضربة فلق هامته وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله عمر بن الخطاب أن يبارز ضرار بن الخطاب فلما برز إليه ضرار انتزع له عمر سهماً فقال له ضرار: ويلك يا بن صهاك أترميني في مبارزة والله لئن رميتني لا تركت عدوياً بمكة إلا قتلته فانهزم عمر عند ذلك ومر نحوه ضرار وضربه ضرار على رأسه بالقناة ثم قال: احفظها يا عمر فإني آليت ألا أقتل قرشياً ما قدرت عليه فكان عمر يحفظ له ذلك بعد ما ولى وولاه.

(١) وفي الدر المنثور ٥: ١٨٨ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ [الأحزاب: ١٨]. . قال: هذا يوم الأحزاب انصرف رجل من عند النبي صلى الله عليه وآله فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف فقال له: أنت هاهنا في الشواء والرغيف والنبيذ ورسول الله صلى الله عليه وآله بين الرماح والسيوف قال: هلم إلي لقد بلغ بك وبصاحبك والذي يحلف به لا يستقي لها محمد أبداً قال: كذبت والذي يحلف به وكان أخاه من أبيه وأمه والله لأخبرن النبي صلى الله عليه وآله بأمرك وذهب إلى النبي صلى الله عليه وآله يخبره فوجده قد نزل جبريل عليه السلام بخبره ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: هؤلاء أناس من المنافقين كانوا=

٦ - ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾: بخلاء في النفس والنفيس والنفسيات، وليسوا - فقط - لا يساعدون على بأس، بل ويزيدون بأساً على بأس وبؤساً في بأس بدعاياتهم السوء، فكلهم كزازات وهزازات ضد المؤمنين، وإن شأنهم الشائن في نفاقهم العارم يبرز في خوف البأس وذهابه، ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ وهم بعدُ في المعركة قبل فرارهم ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ خوفاً كما المحتضر، أو نَظِرَة الإذن للفرار ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ صورة شاخصة واضحة الملامح تنبئ عن سيرة باخسة، مضحكة مبكية تثير السخرية من هؤلاء الجُبناء اللعناء، حيث أخذتهم غشوة الموت فغابت حواسهم، وأخذت أعينهم نَظِرة لزهاق أنفسهم!

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ وأمنوا البأس «سلقوكم» ضربوكم طعناً ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ كأنها نيازك نارية ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ يبخلون عليكم أن زال الخوف عنكم بانتصاركم، وهم يرقبون غَلَب العدو، ويبخلون على ما غنمتم كأنه لهم كله أو يشاركون، وهم لا نصيب لهم في الانتصار!

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ أصبحت ألسنتهم الخرس حِداداً طوالاً لأنفسهم على المؤمنين، وارتفعت أصواتهم بعد الرعشة، وانتفخت أوداجهم بكل رعونة وعظمة، وادعوا ادعاءاتهم الجوفاء دونما اختجال ولا حياء، كأن لهم الفضل دون سواهم، ولم يكن الفضل إلّا لسواهم، ويا له من وقاحة حمقاء ونفاقة لعناء!.

وهذا الجيل من النسناس دائبون في ألسنتهم الحداد بين الناس، صم بكم جبناء أعمياء أشحاء لا حراك لهم حين البأس إلّا ضداً لصالح الناس،

= يقولون لإخوانهم ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه دعوا هذا الرجل فإنه هالك والقائلين لإخوانهم إلى المؤمنين هلم إلينا أي دعوا محمداً وأصحابه فإنه هالك ومقتول ولا يأتون البأس إلا قليلاً قال: لا يحضرون القتال إلا كارهين وإن حضروه كانت أيديهم مع المسلمين وقلوبهم مع المشركين.

فصحاء بلغاء حركون ثوريون في كل صرخة صيحاء. في الأمن والرخاء كأنهم هم الذين جاهدوا وغيرهم قاعدون.

«أولئك» المنافقون والذين في قلوبهم مرض ﴿لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ لمّا ادعوا الإيمان ﴿فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ باللّاإيمان، حيث العمل غير النابع عن الإيمان حابط أياً كان، كما الإيمان دون عمل خابط مهما كان أفضل من اللاإيمان ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ مهما خيل إلى البسطاء إن لكثير العمل أثره وإن لم يكن عن إيمان!

٧ - ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ٢٠﴾:

﴿يَحۡسَبُونَ﴾ المنافقون ﴿ٱلۡأَحۡزَابَ﴾ المهاجمة ﴿لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾ حتى الآن حيث فروا عن زحفهم والخوف ماكن في قلوبهم لا يدعهم يحسبونهم ذهبوا، وحتى إذا حسبوهم ذهبوا ﴿وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ راجعين بعد ذهابهم ﴿يَوَدُّواْ﴾ الحاسبون ﴿لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ خارجون في البادية خارج المدينة ﴿فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ أهل البادية، لا هم أمام الأحزاب في المعركة ولا هم في بيوتهم العورة، وإنما ﴿بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ﴾ كسراً للأحزاب فكُسالى، أو انكساراً منهم ففرحين، فهذه حالتهم وليسوا فيكم ﴿وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ منهم في قليل من الحرب مسايرة النفاق.

إنهم لا يزالون في نعاش وارتعاش وتخاذل واستيحاش فـ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾ وملامح ذهابهم ظاهرة وهم البعيدون البعيدون عن المعركة، يظلون خائفين لو أن الأحزاب ما ذهبت ﴿وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ﴾ هؤلاء الجبناء لو أنهم لم يكونوا من قاطني المدينة، بل هم بادون في الأعراب، فليس لهم موقف مما يمضي في المدينة إلّا و﴿يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ . . .﴾!

وهذه سبعة من أبواب جحيم المنافقين المتخللين بين الجماعة الناشئة

المؤمنة: ١ - ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ...﴾ ٢ - ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾...، ٣ - ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ...﴾، ٤ - ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾...، ٥ - ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾...، ٦ - ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾...، ٧ - ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾...!

ثم المؤمنون الصادقون الراجون الله والذاكرون له كثيراً، لهم أسوة حسنة في رسول الله في هذه المعارك الصعبة:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾:

﴿أُسْوَةٌ﴾ من «أَسَوَ»: أسوت الجرح: داويته، بخلاف الأسى: الحزن، فالواوي منه بمعنى المداواة والإصلاح، واليائي هو الحزن والأسى الجراح، فالطبيب الآسي: هو المداوي، والمصلح بين القوم: الآسي، فالأسوة الحسنة هي حالة خاصة في الاتباع تضمن كلا النفي والإثبات بصورة مطلقة إزالة الأمراض وإصلاح الحال، ولأن الفعلة هي ما يفعل به، فالأسوة هي ما يؤتسى به، فهي الحالة التي يداوى بها ويصلح، فقد تكون للإنسان نفسه كالنبي بما يوحى إليه، أم باتباع غيره كالمرسل إليهم باتباعه في رسالاته ككلٍّ - في قولٍ وفعل وتقرير في عقيدة وأية طوية من نية وعلم، أم ظاهرة في فعل أم تقرير.

و«أسوة حسنة في رسول الله» تعني الأسوة المطلقة بما يحمل من رسالة الله، فيقتدي به شفاءً لأدواءِ وإصلاحاً بعد زوال الداء! والرسول ﷺ «طبيب دوار بطبه قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه يضع من ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عُميٍ وآذان صُمّ وألسنة بُكم متتبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة، لم يستضيئوا بأضواء الحكمة ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة فهم في ذلك كالأنعام السائمة والصخور القاسية، قد انجابت

السرائر لأهل البصائر ووضحت محجة الحق لخابطها وأسفرت الساعة عن وجهها وظهرت العلامة لمتوسمها، ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح وأرواحاً بلا أشباح ونساكاً بلا صلاح وتجاراً بلا أرباح وإيقاظاً نوماً وشهوداً غُيَّباً وناظرة عمياء وسامعة صماء وناطقة بكماء»[١].

والأسوة الحسنة قد تكون مطلقة دون حدود كما «في رسول الله ﷺ» أم مرفقة بحدود كما في إبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[٢].

لقد كان إبراهيم في وعد الاستغفار لأبيه وواقعه معذوراً، فلأنه ما أصاب الحق هنا على عذر، فلا أسوة في عمله المعذور، وهذا يدلنا إلى العصمة المطلقة للرسول محمد ﷺ حيث الأسوة فيه مطلقة لا يخطأ ولو معذوراً، ففي كل أقواله وأعماله هو أسوة دونما استثناء.

وإذا لا يؤتسى إبراهيم الخليل عليه السلام في بعض القول وهو معصوم، فبأحرى ألّا يؤتسى غير المعصوم أسوة مطلقة، وأحياناً هو مأثوم وأخرى خاطئ غير مأثوم.

إن أسوة الرسول المطلقة هي الحسنة المطلقة، وتركها المطلق، سيئة مطلقة، والعوان بين ذلك: قد تأتسي به وقد لا تأتسي، هي أسوة غير حسنة، فقيد أسوته بـ﴿حَسَنَةٌ﴾ إطلاق لها تحلّق على كافة جنبات الحياة الفردية والجماعية، صعبة ملتوية، كما في خندق الأحزاب، أم سهلة لا تلتوي كالعبادات التي لا تكلف نفساً ولا مالاً، وإنما حالاً وأعمالاً!.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٠٨ في ذكر النبي ﷺ عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.
(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

فالمقتدي به ﷺ في محراب الصلاة، والتارك له القاعد عنه في محراب الحرب أسوته غير حسنة، وهو ممن يعبد الله على حرف ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾[1]! أو الأسوة به في علم دون عمل، أم عمل دون علم، أم في علم وعمل دون عقيدة ونية، أنها أسوة سيئة.

إن خندق الحرب مع الأحزاب حيث ابتلي به المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، كان فتنة يفتتن بها من يدّعون الإيمان، فامتاز به صادق الإيمان عن كاذبه، ومازج الإيمان وساذجة عن ناضجه، وهنالك الأسوة معيار له عياره المطلق، المؤتسي به في هذه المعركة المزلزلة المزمجرة له أسوة حسنة في كافة الحالات، وهو ممن ﴿كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

إنها لم تكن صدفة أن تُحتفى آية الأسوة بآيات خندق الأحزاب، قبلها زلزال المؤمنين ونفاق المنافقين، وبعدها تصديق المؤمنين وزيادة الإيمان والتسليم، والكل بين انهزام الكافرين ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾... وردهم بغيظهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ خمس عشرة آية بينهما واخيرتها ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾...!

آية الأسوة تفرض بكل تأكيد وتأبيد الأسوة الحسنة المطلقة برسول الله ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

فـ﴿لَقَدْ﴾ تأكيد أن اثنان، و«كان» تضرب بهذه الأسوة إلى أعماق الماضي، إن ليس تكليفاً حاضراً، بل هو ماض ويبقى، في مثلث الزمن منذ بداية الإيمان لحدِّ الارتحال إلى رحمة الله.

وليست هذه الأسوة له ﷺ إذ ليس إلا رسولاً لا يهدف شخصه

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

وشخصيته، ولا عليكم، إذ ليس إلّا لصالحكم كمؤمنين صادقين، بل هو «لكم»: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ﴾...!

﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ بما يحمل رسالة الله، فهي إذاً أسوة في الله و﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾! لا في «محمد ﷺ كائناً مَن كان، فإنه دون رسالة لا أسوة فيه مطلقة فليست حسنة مطلقة!

﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾ فرجاء الله في حياته كلها متعرق في أعماقه وأرجائه كلها، فإن «كان» هنا كما الأول تضرب إلى عمق الماضي، فليست إذاً حالة جديدة بسيطة بادئة، بل هي ماضية متعمقة متعرقة، عاشها الراجي الله طائلاً عميقاً من حياته وكان ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ لا فقط بلسانه، فكثيرٌ هؤلاء الذاكرون بألسنتهم الغافلون بقلوبهم وأعمالهم، وإنما كثيراً بقلوبهم، الظاهر في أقوالهم وأعمالهم، فالذاكر الله دائباً له أسوة في رسول الله دائباً!

لا تقل إنه رسول أخلصه الله بعصمة منه ورحمة لدنية، فكيف لنا - ونحن نحن - فيه أسوة، فإنما الأسوة فيه فيما سوى العصمة، ما يتوجب عليك كمستسلم لله مخلصاً له الدين، فمهما العصمة لم تكن كسبية، فما دونها من درجات العارفين ومقامات المخلصين كسبية بتلك الأسوة الحسنة.

يخرج الرسول ﷺ بنفسه يعمل في خندق الأحزاب مع المؤمنين، يضرب بالفأس كما يضربون، ويجرف التراب بالمسحاة كما يجرفون، ويضم صوته إلى أصوات المرتجزين، وهو يقودهم في كل ذلك وهم فيه يتأسون، وهو يتقدمهم حين يعيون، يقول سلمان غلظت عليّ صخرة في ناحية من الخندق فلما رآني نزل فأخذ المعول من يدي فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ثالثة فلمعت أخرى قلت: بأبي وأمي يا رسول الله ﷺ! ما هذا الذي رأيت لمع المعول وأنت تضرب؟.. قال: أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمن، وأما الثانية

فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق..

هذا والخطر الخطير من الأحزاب محدق، والقرّ شديد مطبق مرهق، وحذيفة يرتعش برداً والرسول يصلي فإذا به يحن إليه ويلقي إليه طرفاً من ثوبه ليدفئه في حنو وهو يناجي ربه، وبعدما ينتهي من صلاته يبشره حذيفة بالتي رآها في بريقات كالمعول وعرفها قلبه.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ كهذه التي كانت للذين معه في مثل هذه المعركة الصاخبة، لا فقط في اغتنام الغنيمة وصلاة الجماعة «تقول في المجالس كيت وكيت فإذا جاء الجهاد فحيدي حياد»![1] فمن الواجب على كل مؤمن أن تحلّق الأسوة في رسول الله ﷺ على كل أقواله وعقائده وأحواله وأعماله، دونما تخلف عنه ولا قيد شعرة، في فعله وتركه لزاماً ورجاحة أما ذا، وقد «هم عمر بن الخطاب أن ينهى عن الجرة من صباغ البول فقال له رجل: أليس قد رأيت رسول الله ﷺ يلبسها؟ قال عمر: بلى قال الرجل: ألم يقل الله ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؟ فتركها عمر[2].

كما و«أكب عمر على الركن فقال: إني لأعلم أنك حجر ولولا أن رسول الله ﷺ قبلك واستلمك ما استلمتك ولا قبلتك ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3].

ثم نرى فلتات من الخليفة عمر تتعارض وهذه الأسوة المجيدة كقوله:

---

(١) قبسة من مشكاة الإمام علي عليه السلام في خطبة جهادية.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٩٠ - أخرج عبد الرزاق في المصنف عن قتادة قال: هم عمر بن الخطاب...

(٣) المصدر - أخرج أحمد عن ابن عباس أن عمر...

«إياكم والأحمرين: اللحم والنبيذ فإنهما مفسدة للدين متلفة للمال» والرسول ﷺ يقول: «سيد الإدام في الدنيا والآخرة اللحم...»[١].

وقد هم الخليفة أن يأخذ حلي الكعبة فيجهز بها جيوش المسلمين فقال له علي عليه السلام: كان حلي الكعبة فيها زمن الرسول ﷺ فتركه الله على حاله ولم يتركه نسياناً ولم يخف عليه مكاناً فأقره حيث أقره الله ورسوله فقال عمر: لولاك لافتضحنا «وترك الحلي بحاله»[٢].

وقد اشتهر عنه في حكم المتعتين ما يخالف كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ «متعتان كانتا في زمن رسول الله ﷺ حلالاً وأنا أحرمهما وأعاقب عليهما متعة الحج ومتعة النساء»[٣].

وهكذا نراه يتفلت عن هذه الأسوة المباركة أحياناً ويتلفت أخرى ولماذا؟ أنا لا أدري!.

وإليكم نبأً من المؤمنين معه ﷺ في تلك المعركة المزمجرة المحرجة التي برزت فيها معالم النفاق من طائفة، وضآلة الإيمان من أخرى، ولكنما الثالثة:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾:

وأين هذه الآمنة المؤمنة من تلك المنافقة الفاتكة ﴿...مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا... يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ ... سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ...﴾!

وأين كان ومتى، وعد الله ورسوله هجمة الأحزاب وتحليقهم هكذا بأقطار المدينة من فوقهم ومن أسفل منهم؟ قد يكون مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ

(١ - ٣) وأشباهها راجع «علي والحاكمون» تجد فيه تفاصيلها.